برگی از زندگی سید جمال الدین اسدآبادی

نوشته: علامه شیخ علی کاشف الغطاء (م ۱۳۵۰)
تصحیح: رضا مختاری

چکیده: این گفتار، گزارش شیخ علی کاشف الغطاء (م ۱۳۵۰ق) دربارهٔ سید جمال الدین اسد آبادی است که از نسخه اصل کتاب چاپ نشدهٔ او «الحصون المنیعة في طبقات الشیعة» نقل می‌شود. این گزارش عمدتاً مبنی بر مشاهدات شخصی مؤلف است و در ضمن آن، مطالب جرجی زیدان مصری در کتاب «مشاهیر الشرق» نقد و بررسی می‌شود. در ضمن آن، نکاتی دربارهٔ ویژگی‌های شخصی و اخلاقی اسدآبادی نیز می خوانیم.

کلید واژه‌ها: اسدآبادی، سید جمال الدین؛ تاریخ اسلام؛ قرن نوزدهم میلادی؛ زیدان، جرجی؛ مشاهیر الشرق (کتاب)؛ کاشف الغطاء، علی؛ الحصون المنیعة (کتاب).

صفحة من حياة السيّد جمال الدين

هذا المقال هو ما كتبه الشيخ علي كاشف الغطاء (م ۱۳۵۰ق) عن السيّد جمال الدين الأسدآبادي، وقد اقتبسناه من النسخة الأصليّة لكتابه غير المنشور «الحصون المنيعة في طبقات الشيعة».

يعتمد النصّ بصورة أساسيّة على المشاهدات الشخصيّة للمؤلّف، وقد ضمّنه دراسة نقديّة لما أورده الكاتب المصري جرجي زيدان في كتابه مشاهير الشرق حول شخصيّة السيّد جمال الدين.

وفي تضاعيف هذا المقال نطالع أيضا جوانبَ من مميّزات شخصيّة الأسدآبادي وأخلاقه.

المفردات الأساسيّة: الأسدآبادي، السيّد جمال الدين؛ تاريخ الإسلام، القرن التاسع عشر الميلادي؛ زيدان، جرجي؛ مشاهير الشرق (كتاب)؛ كاشف الغطاء، علي؛ الحصون المنيعة (كتاب).

اشاره:

علاّمه شیخ علی کاشف الغطاء (ح ۱۲۶۸ ـ ۱۳۵۰) پدر بزرگوار شیخ محمدحسین و شیخ احمد کاشف الغطاء از عالمان نامدار، پر تلاش و پرکار خاندان علمی و معروف کاشف الغطاست. یکی از آثار ارزشمند این مرد کوشا که منبع بسیاری از کتاب‌ها و تحقیقات پس از اوست کتاب گرانسنگ و ارزشمند الحصون المنیعة في طبقات الشیعة در ده جلد است. شیخ آقا بزرگ تهرانی درباره این اثر گوید:

الحصون المنیعة في طبقات الشیعة، للشیخ علی ابن الشیخ محمد رضا... مؤسّس المکتبة التي هي أنفس مکتبات النجف بل العراق الیوم... والحصون المنیعة هذا في عشر مجلّدات بخطّه، وهي نسخة الأصل المسوّدة، و یزید کل مجلّد علی خمسین ألف بیت، جمع فیه العلماء والشعراء والأطبّاء و سائر الأعاظم من الشیعة بغیر ترتیب، و بما أنّها النسخة الأصلیة تحتاج إلی الترتیب والتهذیب و التنقیح بإسقاط المکرّرات الکثیرة وإصلاح ما وقع فیها من سبق القلم أو السهو والنسیان.[1]

حصون منیعة تاکنون چاپ نشده و نسخه اصل آن به خط مؤلّف در کتابخانه علاّمه محمد حسین کاشف الغطاء در نجف اشرف نگه داری می‌شود.

مؤلّف در این کتاب سرگذشت سید جمال الدین اسدآبادی را هم درج کرده و چون وی از کسانی است که سید را درک کرده و در آستانه ترکیه در اواخر عمر مدتی در حضور وی بوده است، نوشته او اهمیت خاصی پیدا می‌کند. وی می‌گوید:

فرکب البحر ودخل إسلامبول، وأنا یومئذٍ فیها... فحین ملاقاتي له تلقّاني بالرحب والانبساط فحصلت الألفة والمودّة بیننا فصرتُ أغلب الأیام أجتمع به ونتخاوض الحدیث في کلّ فنّ و هو یحترمني غایة الاحترام.

فوجدته بعد ما اختبرتُه سیداً شهماً غیوراً.

و من جملتهم آقا رضا الکرماني کان عنده في إسلامبول، شاهدتُه عنده في داره و هو قاتل الناصر الدین شاه لأنّي سمعتُ منه قائلاً....

... ثمّ إنّي فارقتُه ورجعتُ إلی العراق، وبعد رجوعي بمدة قلیلة جاء خبر وفاته بداء السرطان وقیل بغیره في سنة ۱۳۱۴.

...غیر ما تصفّحه الحقیر في القسطنطنیة من أفعاله و أقواله الدالّین علی ذلك....

وی در این سرگذشت عمده سخن جرجی زیدان در کتاب مشاهیر الشرق را نقل و قسمتی از آن را نقد می‌کند. کاشف الغطاء در نقد سخن جرجی زیدان تصریح می‌کند که: «هو من أسد آباد همدان وإنّه إیرانی عجمي وشیعي اثنی عشري، إمامي المذهب... کان من نوادر الدهر وأفراد الزمان وفي انقضاء قرون کثیرة یلد الدهر بمثله أم لم یلد» در عین حال می‌گوید: «أنّه کان موحّداً صرفاً لا یتدین بدین و قد فهمت من مطاوي کلماته أنّه لا علی مذهب الشیعة ولا علی مذهب السنّة». و شاید به دلیل

۱. الذریعه، ج ۷، ص ۲۴ـ۲۵؛ نیز رک: نقباء البشر، ج ۴، ص ۱۴۳۷ـ۱۴۴۱.

اینگونه تهافت‌هاست که شیخ آقا بزرگ گفته‌اند حصون منیعة نیازمند تنقیح و تهذیب است، چون نسخه فعلی پیش نویس کتاب است.

در سفری به نجف اشرف در فروردین ماه امسال به دعوت دانشگاه کوفه برای شرکت در کنگره سیدهبة‌الدین شهرستانی در خدمت بعضی از فضلا و دوستان از جمله حضرت حجة‌الاسلام جناب مستطاب آقای سید هادی خسروشاهی بودم. روزی به ایشان پیشنهاد کردم که با هم به کتابخانه کاشف الغطاء برویم. ضمن بازدید از مخطوطات کتابخانه، بنده که از قبل می‌دانستم در حصون منیعة‌سرگذشت سید هست، این نکته را به ایشان یادآوری کردم و با پیگیری و سماجت جناب آقای خسروشاهی، شیخ امیر فرزند برومند شیخ شریف کاشف الغطاء، تصویری از صفحات سرگذشت سید در حصون منیعة را در اختیار ما نهاد که با زحمت تصحیح شد و در ادامه ملاحظه می‌کنید.

در اینجا از جناب مستطاب شیخ امیر فرزند شیخ شریف کاشف الغطاء برای در اختیار نهادن تصویری از این صفحات، و حضرت حجة‌الاسلام سید هادی خسروشاهی که اصرار ایشان باعث شد در همان سفر موفق به اخذ تصویر شویم سپاسگزاری می‌کنم.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

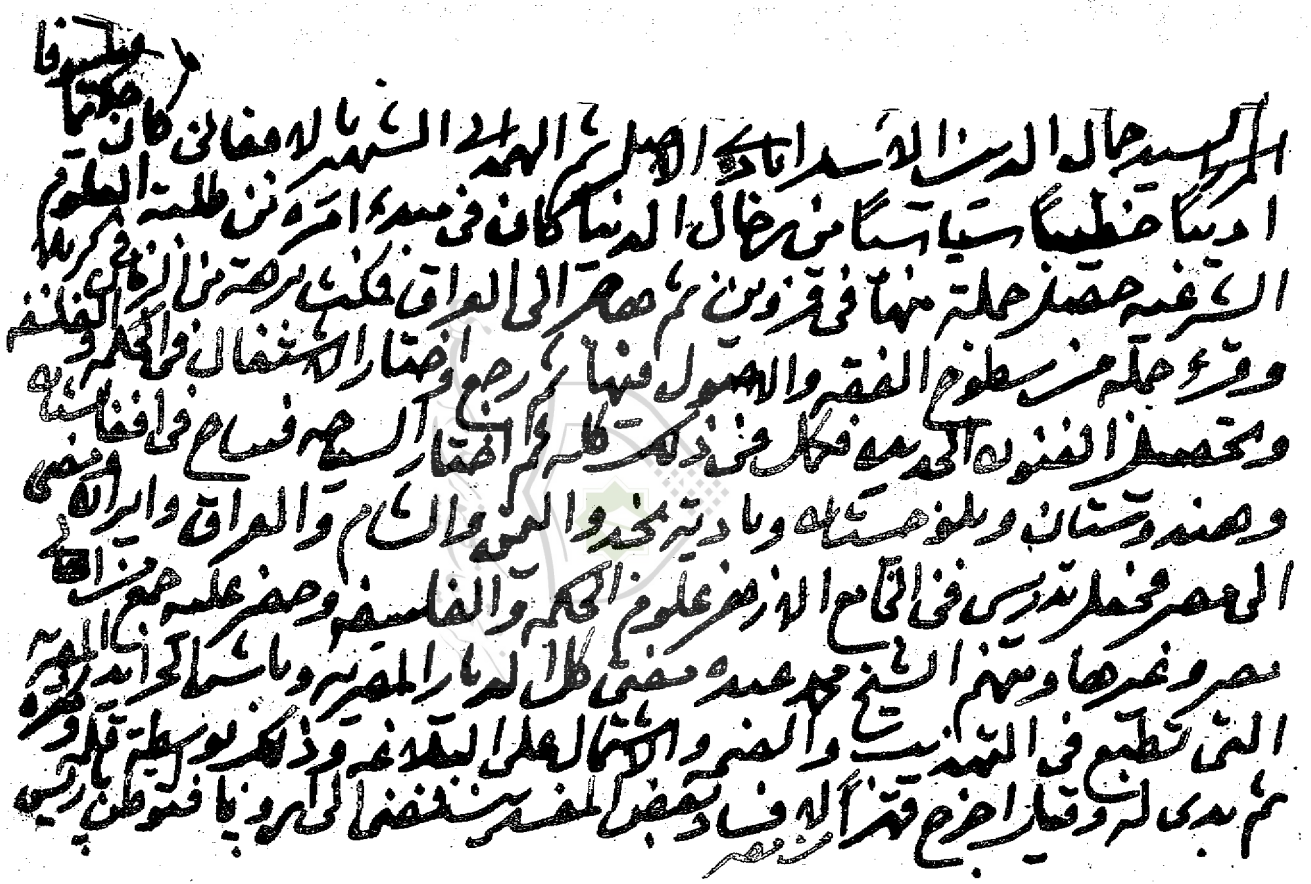

السيّد جمال الدين الأسـدآبادي الأصل ثمّ الهمداني الشهير بالأفغاني، كان حكيماً فيلسوفاً أديباً خطيبـاً سياسـيّاً من رجال الدُّنيا، كان في مبـدء أمره من طلبة العلوم الشـرعيّة، حصّل جملة منها في قزوين ثمّ هاجر إلى العراق فمكثَ برهةً من الزمان في كربلاء وقرأ جملة من سـطوح الفقه والأُصول فيها، ثمّ رجع واختار الاشتغال في الحكمة والفلسفة وتحصيل الفنون الجديدة، فكمُلَ في ذلك كلّه. ثمّ اختار السياحة فسـاحَ في أفغانستان وهندوستان وبلوچستان وبادية نجد واليمن والشام والعراق وإيران، ومضى إلى مصر فجعل يدرّس في الجامع الأزهر علوم الحكمة والفلسفة، وحضر عليه جمعٌ من أهالي مصر وغيرها، ومنهم الشيخ محمّد عبده مُفتي كلّ الديار المصريّة، وباشر الجرائد المصريّة التي تُطبع في التهذيب والصحّة والاشـتمال على البلاغة وذلك بواسـطة قلمه وفكره، ثمّ بداله وقيل أُخرج قهراً من مصر لإفساد بعض المفسِدين فمضى إلى أُروپا فتوطّن پاريس عاصمة دولة الفرانسة، فأخرج فيها جريدة من تقريره وتحريره مشـتملة على المطالب العالية من الأُمور السياسـيّة وغيرها: صفحة بالعربي وصفحة بالفرنسـاوي سمّاها بـالعروة الوثقى، وكان يتكلّم ويكتب بستّة ألسُن: العربي والفارسي والتركي والفرنساوي والهندي والأفغاني، ثمّ بحسب صدور الأمر من بعض الدول القويّة في منع نشـر هذه الجريدة فمنع[2] عن نشرها، فضاعت [؟] أنفاسه وتكدّر خاطره من منع هذه الجريدة فخرج من پاريس راجعاً إلى طهران فتوقّف فيها بكمال العزّ والاحترام من الشـاه والأعيان، ثمّ مضى إلـى پطرسـبوغ[3] عاصمة مملكة الروسـيّة فمكث فيها برهةً معـزّزاً محترماً من [قِبَـل] أرباب الدولة والامپراطـور، وكلّفوه بتولية بعض المأموريّـات اللائقة فأبى وامتنع من ذلك، ثمّ خرج منها يسـيح في بلاد الأُروپ والآسـيا[4]، وفي أثناء سـياحته مرَّ بإسـلامبول وبقيَ فيها مدّة وجعل يدرّس الحكمة والفلسفة في مسجد أيا صوفيّة، فعكفت عليه طلبة العلم منها ومن غيرها فأخذ بعض علمائها الحسد عليه فمضوا إلى شيخ الإسلام يومئذٍ حسن أفندي وذكروا له أنّه يقول: إنّ النبوّة والولاية صناعة كأحد الصنائع كلّ أحد قابل أن يحصّلها ويصير نبيّاً أو وليّاً، فصدّقَ بذلك وأمر بإخراجه، فأُخرِجَ منها قهراً، فرجع أيضاً إلى أُروپا، وفي أثناء تقلّباته في بلاد أُروپا صادف [ال] سفرة الثالثة لبلاد الإفرنج من ناصر الدِّين شاه فاجتمع معه في بعضها فكلّفه بالمجيء إلى طهران.

وبعد رجوع الشـاه إلى إيران جاء السـيّد المرقوم إلـى طهران فحصل له كمـال الاعتناء والإكرام والاحترام من الشاه ووكلائه ووزرائه. وكان نزوله في دار الحاج محمّد حسن التاجر الإصفهاني أمين دار الضرب، فزاره جميع الأعيان والعلماء والأهالي من الأداني والأعالي، فاجتمع عليه بعض الأعيان وأرباب الديوان من الكارهين لدولة القاجار وزيادة ظلمهم وتعدّيهم، وسعوا معه في أن يقدموا على أن يجعلوا دولة إيران جمهوريّة كدولة الفرانسة[5] وأميركا وجملة من الدول، وعزل الناصر الدِّين شاه عن السـلطنة، فحسَّ الشاه فأمرَ بقبضه فهربَ واستجار بشاه عبد العظيم، وبأنواع الحيل أخرجوه منه

۲. كذا والصواب «منع» بدون الفاء.
۳. كذا والصواب «پطرسبورغ» بالراء.
۴. كذا والصواب بدون «ال».
۵. كذا والصواب بدون «ال».

وقيّدوه على الدابّة [كذا، ظ دابّةٍ] عارية وسلّموه بيد عشرين أو أربعين من سوارية القزّاق على أن يوصلوه إلى خانقين خارج حدود إيران ويرجعوا.

فحملوه على أسوء حال يجدّون به السير بلا حلٍّ وترحال إلى أن وصلوا به إلى كرمانشاه في غاية النصب والعطب مع المرض فكاد أن يتلف في الطريق فاستنقذه من أيديهم حسام الملك الهمداني والي كرمانشاهان يومئذٍ وأبقاه عنده إلى أن حسُنَ حاله، فسيّره إلى بغداد معزّزاً مكرّماً، فلمّا وصل إلى بغداد واجتمع مع واليها يومئذٍ سري پاشا في جامع الوزير فصدرت بعض المناظرات معه فأزعجه بالكلام فرأى عدم الصلاح ببقائه في بغداد فأمر بإخراجه من بغداد.

فأُركِبَ قهراً في المركب إلى نحو البصرة ولم يكن عنده يومئذٍ شيء من متاع الدنيا فنزل عند مفتيها يومئذٍ عبد الوهّاب أفندي الحجازي ووالي‌ها هدايت پاشا شير السابق في بغداد فمكثَ عنده تسعة أشهر وحصلت للوالي الرغبة فيه، وبواسطته وواسطة المفتي جمعوا له مقدار تسعين ليرة عثمانيّة من أعيان البصرة.

فركب بحر فارس وتوجّه إلى لندن فحلَّ فيها فلم يزَل يشنّع على دولة إيران ويُظهِر ظلمها وعدوانها على الرعيّة ويتظلّم ممّا صنعوه معه في الطرق والأزقّة ومحلّ الاجتماعات باللغة الفرنساويّة وأغلبهم يفهمون كلامه، ونشر جريدة في بيان معايب دولة إيران.

فلمّا سمع بذلك سلطاننا الأعظم السلطان عبد الحميد خان ـ خلّد الله ملكه ـ وبلغه مقالات السيّد وقرئت له جرائده، حرّكته الغيرة الإسلاميّة وعظُمَ عليه افتضاح إحدى دول الإسلام بين دول النصارى مع اتّحاد الدولتين في الملّة، [فـ]أمرَ بطلبه من لندن إلى إسلامبول مع الترغيبات الكلّية والتشويقات في حلوله بمقرّ السلطنة السنيّة، فركب البحر ودخل إسلامبول، وأنا يومئذٍ فيها، فورد على الشيخ أبي الهدى الرفاعي وكان بينهما كمال الاتحاد وهو الذي كان مأموراً من السلطان في جلبه، فبقي عنده أيّاماً ثمّ طلب للحضور، فجلس بين يدي ذلك الملك الأعظم فأمر بنقله إلى المسافرخانه[۶] في محلّة نشان طاش فبقي فيها مدّة من الزمان فاجتمع عليه بعض المفسدين من المصريّين، فأفسدوا بين السيّد والشيخ «فدقّ بينهما عِطْر مَنْشم»[۷] وجعل كلّ منهما يسبّ الآخر ويكفّره، واتّصل الخبر إلى السلطان بذلك.

ثمّ إنّ السلطان أنعمَ عليه بدارٍ معتبرة جديدة البناء في محلّة نشان طاش مع جميع ما يحتاج إليها من الأفرشة والأسباب، وأنعمَ عليه بكالسكة مع خيلها لركوبه وعيّن له من المطبخ السلطاني طبلة لغذاء النهار وطبلة في الليل من الطعام ووظّف له من صندوق المتقاعدين خمسةً وسبعين ليرة عين في كلّ شهر وبقي رخيّ البال مُنعم الحال لم يزَل يحضر منزل حضرة الملك، وجعلت

۶. كذا والصواب بدون «أل».

۷. في المعجم الوسيط، ج ۲، ص ۹۲۴، «ن ش م»: «المَنْشم: عِطْرٌ صعبُ الدقّ. وكانوا يقولون: «دقّوا بينهم عِطْرَ مَنْشم: اشتدّتِ الحربُ بينهم».

النـاس من الأعيان والوزراء وسـائر الخلق من كلّ فجٍّ يزورونه ويَفِدونَ عليـه، ومن جملتهم مؤلّف هذا المختصر، فحين ملاقاتي له تلقّاني بالرحب والانبسـاط، فحصلت الأُلفة والمودّة بيننا، فصرتُ أغلب الأيّام أجتمع معه ونتفاوض[۸] الحديث في كلّ فنّ وهو يحترمني غاية الاحترام.

وكان مجلسـه يحتوي على الإيرانيّين والعراقيّين والمصريّين والشاميّين والترك والفرنساويّين، وهو يوفّي بالإكرام ويُعطي بالاحترام حقّه، فوجدته بعدما اختبرته سَيِّداً شَهْماً غيوراً جسوراً جواداً عالـي الهمّة يروم معالي الأُمـور، منطيقاً متكلّماً، كان إذا تكلّم بكلّ لغة التـي كان يعرفها كأنّه من أهل تلـك اللغة بل من صميمها خاصّةً العربيّة إذا نطقَ بها كأنّه من أهل الحجاز أو بادية نجد، وبلَغني عمّن شـاهده في الإسكندريّة ومصر وهو يخطب في المحافل الرسـميّة المجتمعة يفرغ ساعتين أو ثلاث عـن كلام فصيح بليغ بـلا تكرار ولا يتعلثم[۹] في منطقـه، وكان لها الاطّلاع الكامل فـي العلوم العربيّة والتاريخ والحديث والتفسير، وأمّا الكلام والحكمة والفلسفة فكان الفرد الأُستاذ الماهر فيهما، وكان يهتمّ ببعض العلوم الغريبة كالكيمياء والجفر وما شاكل ذلك.

وكان لا يـرى للمال قدراً، كلّ مـا كان يصِل إليه يصرفه على الواردين والصادرين والمحتاجين حتّى أنّ الخمسة وسبعين ليرة الموظّفة له من السلطان في كلّ شهر كان يصرفها ولا يبقى منها شيء.

سـوى أنّه كان موحّـداً صِرفاً لا يتديّن بدين، وقـد فهمتُ من مطاوي كلماتـه أنّه لا على مذهب الشـيعة ولا على مذهب السـنّة، وكان يباشـر أهل الكتاب ولا يرى نجاسـتهم، ولم يتقيّد بالعبادات والديانات ولم يتزوّج في مدّة عمره، وكلّما كلّفه السلطان بإعطاء سرية[۱۰] له تكون عنده أبى وامتنع.

ولم يبرز له من المؤلّفات سوى رسالة فارسيّة في ردّ النيچريّة أي الطبيعيّين كتبها في الهند فترجمها باللغة العربيّة تلميذه الشـيخ محمّد عبده وطُبعت في بيروت وقد ترجمه فيها، عندنا منها نسـخة، ثمّ تُرجمت في اللغة التركيّة[۱۱] في إسلامبول.

ثمّ أفسدوا ما بينه وبين السلطان فانقطع عن الحضور وكلّما رامَ الخروج من إسلامبول فلم يتمكّن[۱۲].

وكانت لـه جملة من المريديه كفدائية زماننا وزمان الحسـن الصباح صاحب قلعة ألموت، ومن جملتهم آقا رضا الكرماني كان عنده في إسلامبول شاهدتُه عنده في داره وهو قاتل الناصر الدين شاه؛ لأنّي سـمعت منه قائلاً: «لو بقي من عمري يوماً واحداً[۱۳] لازم أنتقم من ناصر الدّين شاه جزاءً لما فعل معي» فانتقم له هذا الفدائي الذي وطّن نفسه على القتل.

وبالجملـة إنّ هذا الرجل كان من نوادر الدهر وأفراد[۱۴] الزمان وفـي انقضاء قرون كثيرة يلد الدهر بمثله أم لم يلد، ولا يمكن إحصاء جميع حالاته، وفيما ذكرناه الكفاية وكم له من مقالات مفيدة نافعة مدروجة في جريدة حبل المتين وغيرها من الجرائد ما يتعلّق بالسياسيّات وغيرها، رأيتها وقد جمعت

۸. في تاج العروس، ج ۱۰، ص ۱۲۸ «تفاوضوا الحديث: أخذوا فيه».

۹. كذا، والصواب «لا يتلعثم» في تاج العروس، ج ۱۷، ص ۶۵۳ «يقال: قرأ فما تلعثم أي ما توقف ولا تمكث ولا تردد» وانظر أيضاً كتاب العين، ج ۲، ص ۳۵۰، والصحاح، ج ۵، ص ۲۰۳۰ ولسان العرب، ج ۱۲، ص ۵۴۵.

۱۰. في لسان العرب، ج ۴، ص ۳۵۸ «السرية: الجارية المتخذة للملك والجاع فُعلية على تغيير النسب...» وفي معجم مقاييس اللغة، ج ۳، ص ۷۰ «فأما ضم السين في السرية فكثير من الأبنية يغير عند النسبة.»

۱۱. كذا والصواب «باللغة التركية».

۱۲. كذا والصواب بدون الفاء.

۱۳. كذا، والصواب: «يوم واحد».

۱۴. في المعجم الوسيط، ج ۲، ص ۶۸۰، «ف ر د»: «الفَرْدُ من الناس وغيرهم: المنقطع النظير الذي لا مثيل له في جَوْدته... ج: أفراد».

وطبعت كالرسالة، وقد صوّر عكسه صاحب جريدة الهلال في مصر وغيره.

ثمّ إنّي فارقته ورجعت إلى العراق، وبعد رجوعي بمدّة قليلة جاء خبر وفاته بداء السرطان وقيل بغيره في سنة ۱۳۱۴، وقد بلغ عمره الستّين واحتفل احتفالاً تامّاً بجنازته ودفن في إسلامبول.

وقد شكّله المؤرّخ المعاصر الفاضل الأديب جرجي زيدان المصري في كتابه مشاهير الشرق في ثلاث أماكن على صورته الساذجة وفي حال الخطابة وفي حالة المرض وكذا في جريدته الهلال وأطنب في ترجمته، فلابأس بدرجها ملخّصةً ثمّ نذكر ما نعلمه ووقفنا عليه، قال:

ولد سنة ۱۲۵۴ هجريّة وتوفّي سنة ۱۳۱۴ هجريّة... وبعد أن ذكر مقدّمة قال: ـ كما هو شأننا بفقيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيّد جمال الدين الأفغاني رحمه الله فقد نشأ قطباً من أقطاب الفلسفة وعاش ركناً من أركان السياسة ولكنّه مات ولم يتمّ عملاً ولا ألّف كتاباً، على أنّ ذلك لا يحطّ من مقامه، وقد رأينا أعظم فلاسفة اليونان سقراط مات ولم يدوّن شيئاً من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودوّنوها فتوارثتها الأجيال خلفاً عن سلف، فعسى أن لا نحرم من مريدي الأُستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك.[۱۵]

ثمّ قال:

ترجمة حاله: هو السيّد محمّد جمال الدين بن السيّد صفتر (أقول: وأظنّها صفدر بالدال لفظة تركيّة يعني شاقّ الصفّ، وإنّما التحريف بالتاء من الطابع).

ولد في بيت شرف وعلم بقرية أسعد آباد[۱۶] من قرى كنر[۱۷] من أعمال كابل ببلاد الأفغان سنة ۱۲۵۴ (سنة ۱۸۳۹ مسيحيّة).[۱۸]

يقول مؤلّف هذا المختصر: والذي نعلمه نحن ووقفنا عليه ونُقِلَ إلينا متواتراً هو من أسد آباد همدان من توابعها من بلاد إيران وإنّه إيراني عجمي وشيعي اثنا عشري إماميّ المذهب، وكما قال هو من بيت شريف وطائفة جليلة في هذا المحل وكان من بني أعمامه مقيمين عندنا في النجف وبعضهم إلى يومنا موجودون في المحلّ المذكور، وهو أيضاً في مبادئ أمره جاء إلى العراق وتوقّف برهةً من الزمان في كربلاء وحضر جملة من سطوح فقه الإماميّة على فضلاء الإماميّة في البلدة المذكورة، ثمّ ارتحل عنها واختار قراءة الحكمة وآثر السياحة في البلاد على الإقامة في محلّ واحد، وإنّما لكثرة سياحته في بلاد أهل السنّة والجماعة ـ والتقيّة من أقوى عُرى مذهب الشيعة ـ صنع هذا الانتساب إلى الأفغان والاتّصال بمذهب التسنّن تقيّةً حتّى إذا مرّ لسياحته بالأفغان والبلوچستان[۱۹] واليمن ونجد والحجاز وهندوستان ومصر وتركستان يكون مأموناً على نفسه بهذه النسبة وينال مقاصده، ولنا على ذلك جملة من الأدلّة والبراهين يطول الكلام بشرحها، ولو لم يكن إلاّ سعيه التامّ في حصول الحريّة لأهالي إيران وطلب الجمهوريّة في دولتها لكونها وطنه الأصلي

۱۵. مشاهير الشرق، ج ۲، ص ۷۱.
۱۶. كذا والصواب «اسدآباد» وإن كان أكثر المصادر ضبطها بزيادة العين.
۱۷. انظر دائرة المعارف بزرگ اسلامی، ج ۸، ص ۲۵۷ ذيل «اسدآباد».
۱۸. مشاهير الشرق، ج ۲، ص ۷۱.
۱۹. كذا والصواب بدون أل.

وإحساس ذلك منه شاه إيران، وبعد طلبه إلى إيران وإعزازه وإكرامه له فعل معه ما فعل كما ذكره المترجِم، لكفى بذلك دليلاً وأقوى شاهداً على ما ذكرناه غير ما تصفّحته الحقير في القسطنطينيّة من أفعاله وأقواله الدالّين على ذلك، وما ذكرناه لا شكّ فيه عند قاطبة أهالي إيران، وصاحب الدار أدرى بمَن فيها، ولا أُنكر ما ذكره المترجِم فيما وقع له في أفغانستان من الأشياء التي ذكرها، ولعلّها في أيّام سياحته وإقامته بها كما وقع له في باقي الأصقاع التي مرّ فيها من الاتّصال برجالها السياسيّين وجرى عليه ما جرى.

ثمّ قال:

ويتّصل نسبه بالسيّد علي الترمذي المحدّث المشهور ويرتقي إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وآل هذا البيت عشيرة كبيرة تُقيم في خطّة كنر، ولها منزلة عُليا في قلوب الأفغانيّين لحرمة نسبها. وكانت تملك جزءً من أرض الأفغان حتّى سلب الملك منها دوست محمّد خان جدّ الأمير عبد الرحمن وأمر بنقل والد السيّد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة كابل، وجمال الدين لا يزال في الثامنة من عمره، فعني والده في تربيته وتثقيفه فتلقّى مبادئ العلوم العربيّة والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأُصول وكلام وتصوّف والعلوم العقليّة من منطق وحكمة عمليّة سياسيّة ومنزليّة وتهذيبيّة وحكمة نظريّة طبيعيّة وإلهيّة والعلوم الرياضيّة من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ونظريّات الطبّ والتشريح، وكانت لوائح[20] النجابة والذكاء ظاهرةً فيه منذ نعومة أظفاره. فأتمّ هذا كلّه وهو في الثامنة عشرة من عمره.

ثمّ عرض له سفر إلى بلاد الهند فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضيّة على الطريقة الإفرنجيّة الحديثة. وقدِم بعد ذلك إلى الأقطار الحجازيّة لأداء فريضة الحجّ فقضى سنة ينتقل من بلدٍ إلى آخر حتّى وافى مكّة المشرّفة سنة ۱۲۷۳ فوقف على كثيرٍ من عادات الأُمم التي مرّ بها في سياحته.

ثمّ رجع إلى بلاده وانتظم في سلك رجال الحكومة على عهد الأمير دوست محمّد خان المتقدّم ذِكره، ولمّا زحف هذا الأمير إلى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمّه سار السيّد جمال الدين معه في جيشه ولازمَهُ مدّة الحصار إلى أن توفّي الأمير وفُتحت المدينة بعد معاناة! الحصر زمناً طويلاً. وتقلّد الإمارة وليّ عهدها شير علي خان سنة ۱۲۸۰ وأشار عليه وزيره محمّد رفيق خان أن يقبض على إخوته ويعتقلهم، فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة وألّبوهم[21] للفساد طلباً للاستبداد بالإمارة، وكان في جيش هراة من إخوة الأمير ثلاثة محمّد أعظم ومحمّد أسلم ومحمّد أمين، فانتصر السيّد جمال الدين لمحمّد أعظم، فلمّا أحسّوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار وتفرّقوا في الولايات فذهب كلٌّ منهم إلى ولايته التي كان يليها من قِبَل أبيه وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخليّة. وبعد مجادلات عنيفة عظُم أمر محمّد أعظم وابن أخيه عبد الرحمان وتغلّبا على عاصمة المملكة وأنقذا محمّد

۲۰. في المصدر: «ملامح النجابة».
۲۱. في الوسيط «ألّب القوم: جمعهم».

أفضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة [٢٢] وسمّياه أميراً على أفغانستان ثمّ أدركه الموت بعد سنة وقام على الإمارة بعده شقيقه محمّد أعظم خان فارتفعت منزلة جمال الدين عنده فأحلّه محلّ الوزير الأوّل وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمّد أعظم بتدبير السيّد جمال الدين لولا سوء ظنّ الأمير بالأغلب من ذوي قرابته ممّا حمله على تفويض مهمّات الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خِلْو من التجربة عُراة من الحنكة، فساق الطيش أحدهم وكان حاكماً في قندهار على منازلة عمّه شير علي خان في هراة ولم يكن له من الملك سواها فظنّ الفتى أنّه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر إخوته، فلمّا تلاقى مع جيش عمّه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مأتي جندي اخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الغلام منقطعاً عن جيشه فكرّ عليه وأخذه أسيراً فشتّت جند قندهار وقوى الأمل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب إلى شبابها وعضّد الإنكليز شير علي وبذلوا له قناطير من الذهب ففرّقها في الرؤساء والعاملين لمحمّد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجدّدت خيانات، وبعد حروب هائلة تغلّب شير علي وانهزم محمّد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن إلى بخارى، وذهب محمّد أعظم إلى بلاد إيران ومات بعد أشهر في مدينة نيشابور.

أمّا السيّد جمال الدين فبقي في كابل لم يمسسه الأمير بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامّة عليه حميّةً لآل البيت النبوي، إلاّ أنّه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقّه بباطله، ولهذا رأى السيّد جمال الدين خيراً له أن يُفارق بلاد الأفغان، فاستأذن للحجّ فأذن له على شرط أن لا يمرّ ببلاد إيران كي لا يلتقي فيها بمحمّد أعظم، وكان لم يمُت بعدُ، فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمّد أعظم بثلاثة أشهر. فلمّا وصل إلى التخوم الهنديّة تلقّته حكومة الهند بحفاوةٍ وإجلال إلاّ أنّها لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها ولا أذِنَت للعلماء في الاجتماع عليه إلاّ تحت مراقبة رجالها، فلم يقم هناك إلاّ شهراً. ثمّ سيّرته من سواحل الهند في أحد مراكبها إلى السويس فجاء مصر وأقام بها نحو أربعين يوماً تردّد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريّين ومالوا إليه كلّ الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الإظهار [٢٣] فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثمّ تحوّل عن الحجاز عزمه وتعجّل بالسفر إلى الآستانة.

وبعد أيّام من وصوله الآستانة قابل الصدر الأعظم عالي باشا فنزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبلَ عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيّه الأفغاني من القباء والكساء والعمامة العجراء وحوّمت عليه لفضله قلوب الأُمراء والوزراء وعلا ذِكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم ولم تمض ستّة أشهر حتّى سُمّي عضواً في مجلس المعارف فأدّى حقّ الاستقامة في آرائه ولكنّه أشار إلى طرق لتعميم المعارف

٢٢. في المصدر «قزنة».

٢٣. في أعيان الشيعة، ج ١٠، ص ٣٤٦ في سيرة المؤلف: «كان الامتحان الرسمي في ست سنوات سنتان في النحو في شرح الجامي على الكافية و شرح الإظهار...» وفي كشف الظنون، ج ١، ص ١١٧ «إظهار الأسرار في النحو للفاضل محمد بن بير علي الشهير ببركلي المتوفى سنة ٩٨١ و هو مختصر مفيد و شرحه مصلح الدين و لابراهيم المعروف بابن القصاب أيضاً شرح لطيف لهذا المتن».

لم يوافقه عليها رفقاؤه وبينها ما ساء شيخ الإسلام إذ ذاك لأنّها كانت تمسّ شيئاً من رزقه فأرصد له العنت حتّى كان شهر رمضان سنة ۱۲۸۷ فرغب إليه مدير دار الفنون أن يُلقي فيها خطاباً [۲۴] على الصناعات فاعتذر إليه بضعفه في اللغة التركيّة فألحّ عليه فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل إلقائه وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية فاستحسنوه.

فلمّا كان اليوم المعيّن لاستماع الخطابة تسارع الناس إلى دار الفنون واحتفل له جمٌّ غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء، فصعد السيّد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعدّه ببلاغةٍ سحَرَت عقول السامعين.

فأنكر مشايخ العلم شيئاً من آرائه، واتّصل الأمر بشيخ الإسلام وكان متغيّراً عليه كما علمت فالتمس من الدولة إبعاده عن الآستانة، فصدرَ له الأمر بالجلاء عنها بضعة أشهر حتّى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثمّ يعود إن شاء، ففارقها وحَمَلَهُ بعض من كان معه على التحوّل إلى مصر فجاء إليها في أوّل المحرّم سنة ۱۲۸۸.

قدِم السيّد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرّج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتّى لاقى صاحب الدولة رياض پاشا فاستمالته مساعيه إلى المقام وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره ألف قِرْش مصري كلّ شهر نزلاً أكرمته به لا في مقابلة عمل. واهتدى إليه بعد الإقامة كثيرٌ من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض درّاً وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظريّة من طبيعيّة وعقليّة وفي علم الهيئة الفلكيّة وعلم التصوّف وعلم أُصول الفقه الإسلامي. وكانت مدرسته بيته فعظُمَ أمره في نفوس طلاّب العلوم واستجزلوا فوائد الأخذ عنه وأعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت الألسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصريّة، ثمّ وجّه عنايته لتمزيق حُجب الأوهام عن أنوار العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول الأدبيّة والحكميّة والدينيّة فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدّم فنّ الكتابة في مصر بسعيه وكان القادرون على الإجادة في المواضع [۲۵] المختلفة قليلين.

فنبغ من تلامذته في القطر المصري كَتَبَة لا يُشَقّ غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث في السنّ شيوخ في الصناعة وما منهم إلاّ من أخذ عنه أو من [۲۶] أحد تلامذته أو قلّد المتّصلين به. هذا ما حسده عليه أقوام واتّخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفيّة أخذاً بقول جماعة من المتأخّرين في تحريم النظر فيها فتمكّنوا من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامّة، ثمّ أيّدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة، غير أنّ هذا كلّه لم يؤثّر في مقامه من نفوس العارفين بحاله.

وكان رحمه الله على علمه وفضله ميّالاً إلى السياسة فنظر في حال مصر وما آلت إليه من تداخل

۲۴. في المصدر «للحث».
۲۵. في المصدر «المواضيع».
۲۶. في المصدر «عن».

الأجنبي فعلم أنْ لابدّ من تغيّر أحوالها وكان قد انتظم في سلك الجمعيّة الماسونيّة وتقدّم فيها حتّى صار من الرؤساء فأنشأ محفلاً وطنيّاً تابعاً للشرق الفرنساوي دعا إليه مريديه من العلماء والوجهاء فصار أعضاؤه نحواً من ثلاثمائة عدّاً وكان شديد الكره للدولة الانكليزيّة كما تقدّم من حاله معها في الهند وماكان من اعتدائهم على أبناء أبيه، فجهر بذلك غير مرّة ونشر فصولاً ناطقة به ترجموها إلى جرائد انكلترا واهتمّوا بها كثيراً حتّى تولّى المستر غلادستون نفسه أمر الجدال في موضوعها. فلمّا عظُم أمر محفله داخَلَ الخوف قنصل انكلترا فوشى به إلى الحكومة وبثّ الرقباء في المحفل فسعوا فيه فساداً. وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك فصرّح بأُمور قوت حجّة الساعين وكان تولّى مصر المرحوم الخديوي السابق توفيق باشا فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصري هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهنديّة سنة ۱۲۹۶ وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب رسالته في نفي مذهب الدهريّين.

ولمّا كانت الحوادث العرابيّة بمصر دعي من حيدر آباد إلى كلكتة وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتّى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزيّة ثمّ أُبيح له الذهاب إلى أيّ بلد فاختار الشخوص إلى أُروپا[۲۷]، وأوّل مدينة نزلها مدينة لوندرا أقام بها أيّاماً قلائل ثمّ انتقل إلى باريس فوافاه إليها صديقه الشيخ محمّد عبده المصري وكانت في مصر جمعيّة وطنيّة اسمها جمعيّة العروة الوثقى، فكلّفته على بُعد الدار أن ينشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة الإسلاميّة، فأنشأ العروة الوثقى وكلّف صديقه المشار إليه بتحريرها وكان لها وقع حَسن في العالم الإسلامي فنشر منها ۱۸ عدداً ثمّ قامت الموانع دون استمرارها حيث أُقفلت أبواب الهند عنها وتشدّدت[۲۸] الحكومة الانكليزيّة في إساءة من يقرؤها.

وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في أثنائها مقالات في جرائدها تبحث في سياسة أُروپا[۲۹] وانكلترا والدولة العلية ومصر، ترجمت جرائد انكلترا كثيراً منها وجرت له أبحاث فلسفيّة مع الفيلسوف الفرنساوي رينان في العلم والإسلام، فشهد له هذا بسعة العلم وقوّة الحجّة، ثمّ شخص إلى لندرا بإيعاز اللورد شرشل واللورد سالسبرى ليسألاه عن رأيه في المهدي وظهوره إذ ذاك ثمّ عاد إلى فرنسا وتعرّف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلّوه مكاناً عليّاً.

ثمّ عزم على نجد فاستقدمه شاه الفرس إذ ذاك المرحوم ناصر الدين شاه على لسان البرق ليراه فسار قاصداً طهران فالتقى في إصفهان بالأمير ظلّ السلطان فلاقى منه إكراماً حتّى إذا وصل طهران استقبله الشاه أحسن استقبال وأكثر من الثناء عليه حيثما ذكره حتّى في بلاطه وبين أولاده وأهله وولاّه نظارة الحربيّة على أن يرقّيه بعد قليل إلى منصب الصدارة.

وكان جمال الدين قد درس أخلاق الأُمم وعرف تواريخ الدول وتدبّر أحوال السياسة على اختلاف الأمكنة والأزمنة مع بلاغته وقوّة برهانه فنال لدى أُمراء الفرس وعلمائها منزلة قلّ أن ينالها غيره في مثل حاله فأصبح منزله حلقة علم يأُمّها سُراة البلاد ووجهاؤها يتسابقون إلى سماع حديثه فخامر الشاه ريبٌ من أمره مخافة أن يكون وراء ذلك ما يخشى منه على سلطانه فأبدى

۲۷. في المصدر «اوربا».
۲۸. في المصدر «وشدّدت».
۲۹. في المصدر: «روسيا» بدل «أُروپا».

تغيّره عليه فأدرك جمال الدين ما في نفسه فاستأذنه في السفر لتبديل الهواء فأذِنَ له فسار إلى مسكو في روسيا فلاقاه أهلها بالتجلّة والإكرام لما سبق إلى مسامعهم من شهرته. ثمّ شخص إلى بطرسبورج وتعرّف بأعاظم رجالها من العلماء والسياسيّين ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الأفغان والفرس والدولة العليّة والروسيّة والانكليزيّة كان لها دويٌّ شديد في جوّ السياسة.

واتّفق إذ ذاك فتح معرض پاريس لسنة ۱۸۸۹ مسيحيّة فشخص جمال الدين إليها فالتقى بالشاه في مونيخ عاصمة بافاريا عائداً من باريس فدعاه الشاه إلى مرافقته فأجاب الدعوةَ وسار في معيّته إلى فارس فلم يكد يصل طهران حتّى عاد الناس إلى الاجتماع به والانتفاع بعلمه، والشاه لا يرتاب من أمره كأنّ سياحته في أُوربا محت كثيراً من شكوكه فكان يقرّبه منه ويوسّطه في قضاء كثير من مهامّ حكومته ويستشيره في سَنّ القوانين ونحوها، فشقّ ذلك على أصحاب النفوذ وخصوصاً الصدر الأعظم فأسر إلى الشاه أنّ هذه القوانين وإن تكن لا تخلو من النفع فهي لا توافق حال البلاد فضلاً عمّا ستؤول إليه من تحويل نفوذ الشاه إلى سواه، فأثّر ذلك في الشاه حتّى ظهر على وجهه فأحسّ جمال الدين بالأمر فاستأذنه في المسير إلى بلدة شاه عبدالعظيم على [بُعد] عشرين كيلومتراً من طهران فأذِنَ له فتبعه جمٌّ غفير من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم ويحثّهم على إصلاح حكومتهم، فلم تمض ثمانية أشهر حتّى ذاعت شهرته في أقاصي بلاد الفرس وشاع عزمه على إصلاح إيران، فخاف ناصر الدين [شاه] عاقبة ذلك فأنفذ إلى شاه عبدالعظيم خمسمائة فارساً قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه يحفزه[۳۰] خمسون فارساً إلى حدود المملكة العثمانيّة، فعظم ذلك على مريديه في إيران فثاروا حتّى خاف الشاه على حياته.

أمّا جمال الدين فمكث في البصرة ريثما عادت إليه صحّته فشخص إلى لندرا وقد عرفوه الانكليز من قبل فتلقّوه بالإكرام ودعوه إلى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلميّة ليروه ويسمعوا حديثه وكان أكثر كلامه معهم في بيان حال الشاه وتصرّفه في المملكة ما آلت إليه حالها في عهده مع حثّ حكومة الانكليز على السعي في خلعه وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من المابين الهمايوني بواسطة رستم پاشا سفير الدولة العلية في لندرا إذ ذاك أن يقدِم إلى الآستانة فاعتذر بأنّه في شاغل وقتي لإصلاح بلاده. فورد عليه كتابٌ آخر وفيه ثناء وتحريض فأجاب الدعوة تلغرافيّاً على أن يتشرّف بمقابلة جلالة السلطان ثمّ يعود. فقدِمَ الآستانة سنة ۱۸۹۲م: فطابت له فيها الإقامة لما لاقاه من التفات الحضرة السلطانيّة وإكرام العلماء ورجال السياسة وما زال فيها معزّزاً مكرّماً وجيهاً محترماً حتّى داهمه السرطان في فكّه أواخر سنة ۱۸۹۶ الماضي[۳۱] وامتدّ إلى عنقه فتوفّاه الله في ۹ مارس سنة ۱۸۹۷م. واحتفل بجنازته ودفنه في مدفن «شيخلر مزار لغي» قرب نشان طاش.

صفاته الشخصيّة: كان أسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز، ربعة ممتلئ البُنية أسود العينين نافذ اللحظ جذّاب النظر مع قصر فيه فإذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ولكنّه لم يستخدم النظّارات،

۳۰. في مقاييس اللغة، ج ۲، ص ۸۵: «الحفز: حثك الشيء من خلفه».

۳۱. كذا. وفي المصدر: «۱۸۹۶م».

وكان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبّة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاهلين [۳۲] وعمامة صغيرة بيضاء على زيّ علماء الآستانة.

طعامه: كان قانتاً قليل الطعام لا يتناوله إلاّ مرّة في النهار ويعتاض عمّا يفوته من ذلك بما يشربه من منقوع الشاي مراراً في اليوم. والعفّة في الطعام لازمة لمن يعمل أعمالاً عقليّة؛ لأنّ البطنة تُذهب الفطنة، وكان يدخّن نوعاً من السيكار الإفرنجي الجيّد، ولشدّة ولعه بالتدخين وعنايته في انتقاء السيكار لم يكن يركن إلى أحد من خدمه في ابتياعه فيبتاعه هو بنفسه.

مسكنه: كان يُقيم في أواخر أيّامه بقصر في نشان طاش بالآستانة، أنعم عليه به جلالة مولانا السلطان، وفيه الأثاث والرياش وعربة من الإصطبل العامر يجرّها جوادان، وأجرى عليه رزقاً مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانيّة في الشهر، فكان قبل مرضه الأخير يقيم معظم النهار في منزله فإذا كان الأصيل ركب العربة لترويح النفس في منتزه كاغدخانه بضواحي الآستانة وكان كثير القيام لا ينام إلاّ الغلس إلى الضحى.

مجلسه وخطابه: كان أديب المجلس كثير الاحتفال [۳۳] بزائريه على اختلاف طبقاتهم، ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظنّ في زيارته تزلّفاً [۳۴]. وكان ذا عارضة [۳۵] وبلاغة لا يتكلّم إلاّ اللغة الفُصحى بعبارات واضحة جليّة. وإذا آنس من سامعه التباساً بسّط مراده بعبارة أوضح، فإذا كان السامع عامّيّاً تنازل إلى مخاطبته بلغة العامّة.

وكان خطيباً مصقعاً لم يقم في الشرق أخطب منه وكان قليل المزاح وزيناً كتوماً قد يخاطب عشرات من الناس في اليوم فيبحث مع كلّ منهم في موضوع يهمّه فإذا خرج جليسه كان خروجه آخر عهده بذلك الموضوع حتّى يعود هو إليه بشأنه.

أخلاقه: كان حرّ الضمير صادق اللهجة عفيف النفس رقيق الجانب وديعاً [۳۶] مع أنَفَة وعظمة، ثابت الجأش قد يُساق إلى القتل فيسير إليه سيرَ الشجاع إلى الظفر. وكان راغباً عن حطام الدنيا لا يدخر مالاً ولا يخاف عوزاً. وممّا رواه الأديب إسحاق أنّ جمال الدين لمّا أُبعدَ من مصر أُنزل في السويس خالي الجيب فأتاه السيّد النقادي قنصل إيران في ذلك الثغر ومعه نفرٌ من تجّار العجم قدّموا له مقداراً من المال على سبيل الهديّة أو القرض الحسن فردّه وقال لهم: «احفظوا المال فأنتم إليه أحوج؛ إنّ الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب» وكان مقداماً حاثّاً على الإقدام فلا يخرج جليسه من بين يديه إلاّ وقد قام في نفسه محرّض على العُلا منشّط على السعي في سبيلها، ولكنّه كان على فضله لا يخلو من حدّة المزاج ولعلّها كانت من أكبر الأسباب لما لاقاه من عواقب الوشاية.

عقله: كان ذكيّاً فطِناً حادّ الذهن سريع الملاحظة يكاد يكشف حُجب الضمائر ويهتك أسرار السرائر، دقيق النظر في المسائل العقليّة، قويّ الحجّة ذا نفوذ عجيب على جلسائه فلا يباحثه أحد

۳۲. في المصدر «الكاحلين» والصواب ما في المتن.

۳۳. في المصدر: «الاحتفاء» بدل «الاحتفال» وفي لسان العرب، ج ۱۱، ص ۱۵۹ «ما حفله وما احتفل به يحفل حفلاً وما احتفل به أي ما بالى، والحفل المبالاة، يقال: ما أحفل بفلان أي ما أبالي به».

۳۴. في الصحاح، ج ۴، ص ۱۳۷ «الزلف: التقدم... وتزلّفوا وازدلفوا أي تقدموا».

۳۵. في لسان العرب، ج ۷، ۱۸۱ وفي حديث عمرو... إنّه لشديد العارضة أي شديد الناحية ذو جلد و صرامة... وإنه لذو عارضة و عارض أي ذو جلد و صرامة و قدرة على الكلام مفوه على المثل أيضاً».

۳۶. في لسان العرب، ج ۸، ص ۳۸۲، والدعة من وقار الرجل الوديع وفولهم عليك بالمودوع أي بالسكينة والوقار».

في موضوع إلاّ شعر بانقياد إلى برهان[۳۷] وربما لا يكون البرهان بحدّ ذاته مقنعاً. وكان مع ذلك قويّ الذاكرة حتّى قيل إنّه تعلّم اللغة الفرنساويّة أو بعضها وصار يقدر على الترجمة منها و يحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في أقلّ من ثلاثة أشهر بلا أستاذ إلاّ من علّمه حروف هجائها يومين.

علومه: كان واسع الاطّلاع في العلوم العقليّة والنقليّة وخصوصاً الفلسفة القديمة وفلسفة تاريخ الإسلام والتمدّن الإسلامي وسائر أحوال الإسلام، وكان يعرف اللغات الأفغانيّة والفارسيّة والعربيّة والتركيّة والفرنساويّة جيّداً، مع إلمام باللغتين الإنكليزيّة والروسيّة. وكان كثير المطالعة لم يفته كتابٌ كُتِبَ في آداب الأمم وفلسفة أخلاقهم إلاّ طالعه، وأكثر مطالعاته في اللغتين العربيّة والفارسيّة.

آماله وأعماله: يؤخذ من مجمل أحواله أنّ الغرض الذي كان يصوّب نحوه أعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزةٍ واحدة إسلاميّة[۳۸] تحت ظلّ الخلافة العظمى، وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتّخذ زوجة ولا التمس كسباً ولكنّه مع ذلك لم يتوفّق إلى ما أراده فقضى ولم يدوّن من بنات أفكاره إلاّ رسالة في نفي مذهب الدهريّين ورسائل متفرّقة في مواضيع مختلفة قد تقدّم ذكرها ولكنّه بثّ في نفوس أصدقائه ومُريديه روحاً حيّة حرّكت هممهم وحدّدت أقلامهم فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم[۳۹].

انتهى ما عن مشاهير الشرق لجرجي زيدان ولكن للاعتراض مجال في جملة من مطالبه التي ذكرها في ترجمته.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

۳۷. في المصدر «برهانه».
۳۸. في المصدر «في حوزة دولة واحدة إسلامية».
۳۹. مشاهير الشرق، ج ۲، ص ۷۱_۸۴.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی